

منذ الأيام الأولى للثورة الشعبية في سوريا ضد نظام الأسد الطائفي المستبد ، والأثر الإسلامي ظاهر بقوة على مشهد الصراع ، فقد اتضح مع تحول الثورة من كفاحها السلمي إلى الجهاد المسلح ، أن الصبغة الإسلامية هي الأكثر حضوراً ، والأشد لمعانا وظهوراً ، في حين أن التيارات المحسوبة على العلمانية من ليبراليين واشتراكيين وقوميين وغيرهم كانوا حمولة زائدة ، تصدرهم وسائل الإعلام وتتسلط عليهم الأضواء ، لسحب البساط من تحت أقدام الثوار الحقيقيين ، في حين لا قيمة لهم على وجه الحقيقة في مجريات الأمور . ومع محاولة أمريكا احتواء الحراك الثوري ، بطرح فكرة إنشاء ذراع سياسي لها ، اتضح مدى الهوة بين الذراع العسكري والسياسي ، ففي حين جاء العسكري متماشياً ومتماهياً مع طبيعة تكوين الشعب السوري ، ومعبرا عن كل أطيافه وشرائحه ، جاء الذراع السياسي انتقائياً متماشياً ومتماهياً مع الرغبات الأمريكية والأوروبية التي كانت تريد احتواء الذراع العسكري بالسياسي ، حريصاً على نيل الرضا الخارجي أكثر من كونه معبراً عن الشعب الذي يمثله ، ويتحدث باسمه ، خاصة منذ ولاية " أحمد الجربا " الذي تولى المنصب ابتداءً ، وجدد له ثانية ، بضغط أمريكي على أعضاء التحالف .

أمريكا حاولت سحب البساط من تحت أقدام المجموعات الإسلامية المجاهدة في سوريا ، بتوجيه جل دعمها إلى العناصر العلمانية في الثورة السورية ، واتبعت الأسلوب الانجليزي الشهير " فرق تسد " بتصنيف الجيش الحر إلى شق علماني وآخر إسلامي ، وعلى الرغم من عبثية هذه المحاولة ، وحتمية فشلها ، إلا إن الأمريكيان قد مضوا فيها قدماً ، واصطنعوا اللواء " سليم إدريس " الضابط الكبير السابق في جيش الأسد ، والذي أصبح القائد العام للجيش الحر بعد إبعاد القائد المجاهد " رياض الأسعد " بمحاولة اغتيال فاشلة أفقدته ساقه . ومع تطور الأحداث في سوريا ولحس أمريكا لتهديداتها للأسد ، والتقارب السريع والمريب بين أمريكا وروسيا من جهة ، وبين أمريكا وإيران من جهة أخرى ، ومع ظهور شبه اتفاق نهائي على بقاء الأسد في سدة الحكم ، قررت الفصائل الإسلامية التي تشكل 75 % من قوام الجيش الحر تشكيل جبهة ذات قيادة واحدة مستقلة بذاتها عن الجيش الحر ، وذلك في أعقاب اتفاق كيري - لايفروف في سبتمبر الماضي والذي كشف بجلاء عن ضعف الائتلاف السوري المعارض ، وارتباطه بالأجندة الأمريكية ، وكشف أيضاً حقيقة مؤتمر جنيف 2 والذي يهدف لإبقاء الأوضاع كما هي في سوريا ، وتحجيم المقاومة الإسلامية والكتائب المجاهدة ضد الأسد ، وشرعنة الوجود الإيراني بأذرعه اللبنانية والعراقية واليمينية على التراب السوري .

الجبهة الإسلامية الجديدة تشكلت من عدة كتائب إسلامية منها أحرار الشام وينضوي تحت لوائها عشرون ألف مقاتل ، ولواء التوحيد والفتح ، وله اثنا عشر ألف مقاتل ، وصقور الشام ، وتشكيلات أخرى ليصبح مجموع مقاتلي الجبهة أزيد من خمسين ألف مقاتل ، ولم تضم الجبهة الإسلامية جبهة النصره والتي تملك أكثر من عشرين ألف مقاتل ، ولكنها تحتفظ بعلاقات قوية ومتينة مع قادة الجبهة ، كما لم تضم مقاتلي دولة الإسلام في العراق والشام المعروف إعلامياً باسم " داعش " وهي الجبهة التي تسبب تهور قائدها أبي بكر البغدادي وغلوه في توتر العلاقات بينه وبين كافة المجاهدين السوريين ، خاصة جبهة النصره ، بعد دعم الدكتور الظواهري للأخيرة في الخلاف الذي نشب بين البغدادي والجولاني قائد جبهة النصره .

وكما هو معروف للجميع أن الثورة السورية قد أصبحت ثورة كونية تتداخل في فعاليتها الكثير من الأطراف الدولية والإقليمية ذات الأجندات المتباينة ، والرغبات المتعارضة ، وعملاء التأثير في الثورة السورية كان لهم دور بارز في الأسابيع الأخيرة ، وخاصة منذ تشكيل الجبهة المتحدة ، ووضح بجلاء أن ثمة اختراقات ولو بصورة غير مباشرة لبعض التشكيلات المقاتلة من جانب أجهزة مخابرات سورية وخارجية ، ففجأة ودون مبررات معقولة ، أو مقدمات مقبولة ، اندلع القتال بين الجبهة الإسلامية الموحدة وتنظيم دولة الإسلام في العراق والشام ، وأعملت المقاومة الإسلامية سلاحها في نفسها ، فسقط مئات القتلى والجرحى في هذا القتال المرير الذي يعتبر بحق قتال فتنة ، كان الأسد وجنوده وداعموه هم أكثر الناس فرحاً له وتطييراً لأخباره .

القتال الدائر اليوم في سوريا بين أجنحة المعارضة السورية يذكرنا ويجرنا جراً إلى مشهد شديد المأساوية يشبه ما يجري الآن على أرض الرباط في سوريا ، ونعني به الجهاد الأفغاني في ثمانينيات القرن المنصرم . فالأحزاب والتشكيلات الأفغانية تعاونت فيما بينها على قتال الروس ، وضربت أروع الأمثلة في إنكار الذات والبذل والتضحية

، فلما دخل القتال مرحلة السيطرة على المدن بدأت حظوظ النفس في الظهور ، ووقع التنافس بين جبهات حكمتيار وشاه مسعود وبرهاني وخالص وسياف وغيرهم من رفقاء السلاح وشركاء الجهاد ضد المحتل الروسي ، وتعطلت حركة التحرير بذلك كثيرا ، إذ بدأت مصلحة الحزب والحركة تراعي أكثر من مصلحة البلاد والجهاد ، كما أن حالة التنافس بين الأحزاب الأفغانية أدت لاعتماد كل حزب على طرف خارجي للدعم ومن هنا دخلت أمريكا وفرنسا وباكستان وإيران والسعودية ، وكان هذا التدخل الخارجي نذير فتنة أضاعت جهود السنين ، وشوهت وجه الجهاد المقدس .

الجهاد الأفغاني كان يعتمد على استمرار التوافق واستمرار الدعم الشعبي الإسلامي وهذا ما دفع زعيم المجاهدين "عبد الله عزام" رحمه الله للتغطية على الأخطاء حفاظا على السمعة ، وهو أمر ساعد على استمرار الجهاد ، ولكنه وساعد أيضا على تضخم تلك الأخطاء ، وعندما كثر الكلام حول علاقة أحمد شاه مسعود بفرنسا سافر إليه عبد الله عزام وكتب (رحلتي إلى الشمال) وبرأ ساحته ثم انتهت الحرب وانكشفت العلاقة . فالمشاكل التي نتجت عن تنافس الأحزاب الأفغانية على الغنائم والدعم الخارجي كان من السهل تجاوزها عبر تحكيم العلماء والوجهاء .

وبتحليل المشهد الأفغاني نجد أن الإقصاء والرغبة في الاستئثار بالمشهد السياسي كان هو السبب الرئيس في الصراع بين الفصائل الإسلامية ، عندما ظهر الاستئثار بالسلطة بعد انتهاء الحرب ولغت الأحزاب الأفغانية بدماء بعضها وتولت عن أهداف الجهاد فاستبدل الله الجميع بحركة طالبان ، فمثلا أثناء الجهاد الأفغاني ضد الروس قام الشيخ جميل الرحمن بإعلان إمارة كونر الإسلامية ورفض احتجاج الأفغان مما أدى لاجتماعهم عليه والإطاحة به . جميل الرحمن كان يمثل السلفية بأفغانستان وكان مدعوما من علماء الخليج إلا أن إقصائه لبقيّة الأفغان جعلهم يرونها كخيانة لمشوار جهادهم المشترك . الجهاد الأفغاني أثبت أن معالجة الأخطاء تبدأ بكشفها كيلا تنمو في الخفاء ، وأن الإقصاء بوابة للاقتتال الداخلي لا تغلق إلا بترسيخ مبدأ الشورى .

واليوم في سوريا وبغض النظر عن المسئول في اندلاع هذا الصراع ، تجري نفس السنن التي جرت على المجاهدين الأفغان ، فقد تعطلت أعمال المقاومة ضد العدو الأصلي ، وتكبدت أطراف الصراع خسائر ضخمة ، وسقط كثير من الأبرياء والضحايا بلا ذنب ، وتعاضم النفوذ الخارجي بعد أن أصبح كل طرف في حاجة لدعم يقوي جبهاته القتالية ، وأصبحت لغة التخوين والتكفير والتفسيق المتبادل تسيطر على الخطاب الإعلامي لهذه الجبهات ، وانتهاز نظام الأسد الفرصة وشن هجمات قاسية على المناطق والمعابر الحدودية التي كانت خاضعة لإدارة المعارضة الإسلامية ، كما حاول الأمريكان اختراق الجبهة الجديدة وإغراءها بالدخول في مسار " جنيف 2 " ، حتى تبدو بمظهر العميل والموالي للأمريكان ، والإيقاع بينها وبين تنظيم دولة الإسلام . بل وصل الأمر لدخول الصهاينة على الخط لصب مزيد من الزيت الحار على النار ، فقد كتب المحلل السياسي " دانييل بايبس " أكثر الصهاينة تعصبا على وجه الأرض في افتتاحية الواشنطن بوست مقالا يدعو فيه لمساندة الثوار السوريين ضد تنظيم القاعدة في سوريا .

كل ذلك وغيره من محاولات إيقاع الفرقة وشق الصف المقاوم للنظام الأسدي الطائفي ، وتشويه صورة الجهاد الإسلامي الذي وجد له قدما راسخة على أرض الجهاد والرباط ، واستلهاهم نموذج الصراع الأفغاني ، لم يكن لها أن تنجح أو تؤتي ثمارها كما هو قائم اليوم ، لو تداعي المجاهدون إلى كلمة سواء ، وحكموا شرع الله عز وجل بينهم ، وتخلوا عن حظوظ النفوس وأهواء القلوب ، وتجردوا لله عز وجل وحده ، وعلموا أن الصراع على السلطة والإقصاء للآخرين لن يجلب إلا الخراب على البلاد والعباد . فهل من مدكر ؟

كاتب المقالة : المفكرة

تاريخ النشر : 16/01/2014

من موقع : موقع الشيخ الدكتور/ محمد فرج الأصفر

رابط الموقع : www.mohammedfaraq.com